الفصل العاشر

كريستول.. الأب الروحى للأشرار

«إن الدول ذات الهوية الأيديولوجية - مثل الاتحاد السوفيتى بالأمس والولايات المتحدة اليوم - سوف تجدد نفسها مضطرة للدفاع عن كيانها ضد القوى غير الديمقراطية.. داخليًا وخارجيًا. وهذا هو السبب الذى جعل مصلحتنا القومية فى الدفاع عن بريطانيا وفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. وهذا هو السبب الذى يجعلنا نشعر بضرورة الدفاع عن إسرائيل عندما تتعرض للتهديد دون الدخول فى الحسابات الجيوبوليتيكية المعقدة للمصالح القومية الأمريكية»!! هذا ما يقوله إيرفينج كريستول الأب الروحى لحركة المحافظين الجدد.. وأحد بناة الإمبراطورية الأمريكية الجديدة!

ويقول الأب الروحى للمحافظين الجدد: سواء قصدت الولايات المتحدة أم لم تقصد.. فإنها أصبحت تسيطر على العالم عسكريًا وثقافيًا. وفى كتابه (الإمبراطورية الأمريكية الصاعدة).. يواصل إيرفينج كريستول عرض أفكاره وتوجهاته الاستعمارية: «فى يوم ما سوف يستيقظ الشعب الأمريكى على

حقيقة أن بلاده أصبحت إمبراطورية فعلية.. حتى لو كانت تقاليدنا السياسية تتنافى مع ذلك.. وعلى رغم اعتراض جانب من الرأى العام الأمريكى على هذا الوضع. وهذا الطموح المتوقع هو الذى يحدد مصير الولايات المتحدة.. وهى ليست مؤامره من قبل النخبة الأجنبية المثقفة!. إن الولايات المتحدة أصبحت إمبراطورية لأن العالم أراد حدوث ذلك (من وجهة نظر كريستول طبعًا). كما أن تلك الإمبراطورية جاءت نتيجة سلسلة من الأزمات التى لا يمكن حلها دون التدخل الأمريكى ! ولم تنشأ الإمبراطورية فى ظل حالة من اللاوعى أو الغياب العقلى.. كما زعم أحد المؤرخين. كما أن هذه الحالة هى التى دفعت إلى وجود ونشأة الإمبراطورية الأمريكية»!

أوروبا غير مستقلة

يواصل الأب الروحى لصناع الشر حديثه قائلاً: «إن نشأة وتطور حلف الناتو تؤكد تلك الحقيقة. فقد كان هناك تصور بأن الحلف يتكون من القوى العسكرية الرئيسية للولايات المتحدة وأوروبا الغربية. ولكن الدول غير العسكرية - مثل بلجيكا وهولندا والدنمارك واليونان - انضمت للحلف خشية تجاهل مصالحها القومية. وها هى ذى بولندا والمجر وتشيكيا تسير فى ذات الاتجاه.. مما أثار جدلاً فى الولايات المتحدة من أن هذا التوسع قد يزيد إثارة واستفزاز روسيا».

والناتو - بوضعه الحالى - كما يرى إيرفينج كريستول يعنى أن الولايات المتحدة منحت أوروبا ضمانًا لحدودها القائمة.. ضمانًا بعدم تعرضها للغزو أو الاعتداء. وهذا هو الهدف الأهم والأسمى لتلك الدول. ولكن التساؤل الذى يفرض نفسه: ما هو الثمن الذى تدفعه أوروبا مقابل هذا الضمان الأمريكى؟!.. ظاهريًا لا يبدو أن هناك مقابلاً لذلك.. ولكن النظرة العميقة تؤكد أن دول أوروبا قد تخلت وتنازلت عن الكثير لتحقيق هذا الهدف (ضمان أمنها أمريكيًا). الحقيقة المؤكدة الآن هى أنه لا توجد دولة أوروبية تريد - أو تستطيع - الاحتفاظ بسياسة خارجية. خاصة بها. بل إنه لا توجد أية دلائل على أن الدول الأوروبية تحظى بسياسة خارجية مستقلة عن الولايات المتحدة.. أى إنها دول معتمدة وتابعة للولايات المتحدة.. على رغم أنها تحتفظ بنطاق واسع من الاستقلال الذاتى (المحلى). ولعل مفهوم الإمبراطورية الأمريكية يفسر هذا المزيج بين اعتماد أوروبا على أمريكا واستقلاليتها عنها! بمعنى آخر فإن أوروبا اليوم لا تطمح إلا فى الحفاظ على أفضل حال ممكن من الرخاء.. وجنى الأرباح من خلال أنشطتها الاقتصادية مع بقية دول العالم!

أسس الأيديولوجية

وفى مقال أهم وأخطر يشرح إيرفينج كريستول (عقيدة المحافظين الجدد).. قائلا: منذ بروزها وسط المثقفين

الليبراليين خلال السبعينات.. ظلت حركة المحافظين الجدد تيارًا ثقافيًا وراء الكواليس أو تحت السطح.. تظهر على فترات متباعدة.. وبشكل متقطع.. ثم عادت لتزدهر وتنتعش مؤخرًا. بل إن جورج بوش وإدارته وصلا إلى السلطة فى ظل بيئة سياسية ساعدت حركة المحافظين الجدد على خلقها وتهيئتها.. أى إن هذه الإدارة برزت وسط نهضة المحافظين الجدد.

يقول كريستول: «إذا كان الكثيرون يسألون ويتساءلون عن معنى ومغزى هذا التيار، ويشيرون إلى أننى الأب الروحى له.. فإننى نفسى أتساءل واستفسر عن معناه ومغزاه منذ سنوات.. عندما قلت - وكتبت - إن حركة المحافظين الجدد كانت تحظى بسمات متميزة خلال سنواتها الأولى.. ولكن الآن تم استيعابها داخل التيار الأشمل (حركة المحافظين الأمريكية). لقد كنت مخطئًا. والسبب فى ذلك هو أن ما نطلق عليه حركة المحافظين الجدد كانت إحدى التيارات الثقافية غير الظاهرة والمتقطعة، أى إنها ليست حركة كما يطلق عليها بعض النقاد. بل إنها - كما أطلق عليها المؤرخان الراحلان جاكسونيان أمريكا ومارفين مايرز - عقيدة ومذهب.. إنها عقيدة تشرح أبعادها ذاتيًا بمرور الوقت.. وبشكل شاذ. وهى عقيدة ومذهب يمكن فهم معناها فى إطارها التاريخى السابق».

وعندما نقيم تلك الحركة - كما يقول الأب الروحى لها- فى إطارها التاريخى.. فإننا نستطيع القول بأن الهدف الأساسى لحركة المحافظين الجدد هو: تحويل واجتذاب الحزب الجمهورى إلى تلك العقيدة.. عقيدة المحافظين الجدد. وبمعنى آخر.. أشمل وأوسع.. العمل على تحويل الحركة الأمريكية المحافظة بأسرها إلى نوع جديد من السياسة المحافظة المناسب للحكم الديمقراطى المعاصر.

وبهذا المعنى - كما يرى كريستول - لا توجد حركة للمحافظين الجدد فى أوروبا.. بل إن أغلب المحافظين الأوروبيين يشككون فى مشروعية حركة المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة- كما أن الحركة الأمريكية تبدو أكثر قوة ونفوذاً وعنفواناً.. مقارنة بالحركة المحافظة الأوروبية، كما أن الحركة الأمريكية ذات فعالية وتأثير سياسى واضح.

ومن المثير للدهشة.. كما يقول الأب الروحى لصناع الشر.. أن تلك الحركة ليست لها مبادئ فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.. فقط لديها مجموعة من التوجهات المستقاة والنابعة من تجربتها التاريخية.. هذه التوجهات يمكن تلخيصها على النحو التالى:

●● أولاً: الوطنية.. وهو شعور طبيعى وصحى يجب أن تشجعه المؤسسات العامة والخاصة.

●● ثانيًا: الحكومة العالمية.. فكرة مرفوضة ومرعبة (فى نظر المحافظين الجدد) لأنها يمكن أن تؤدى إلى نوع من الاستبداد العالمى. ويجب النظر بشك عميق إلى المؤسسات الدولية التى قد تؤدى إلى إنشاء الحكومة العالمية!

●● ثالثًا: يجب أن يحظى رجال الدولة (الأمريكيون) بالقدرة على التمييز بين الأصدقاء والأعداء.. ولا يبدو هذا أمرًا سهلاً للوهلة الأولى.. كما كشف تاريخ الحرب العالمية الباردة، إذ فشل عدد كبير من رجال الدولة الأذكياء فى اعتبار الاتحاد السوفيتى عدوًا.. وكان عددهم كبيرًا!

●● رابعًا: بالنسبة للقوة العظمى.. فإن (المصلحة القومية) ليست مصطلحًا جغرافيًا.. باستثناء الأمور الواقعية.. مثل التجارة والبيئة. والدولة الصغرى حجمًا ربما تشعر أن مصالحها القومية تبدأ وتنتهى عند حدودها.. لذا فإن سياستها الخارجية تظل دفاعية دائمًا. أما الدولة الكبرى (كما يقول إيرفينج كريستول) فلديها مصالح أكبر وأكثر. والدول الكبرى ذات الهوية الأيديولوجية - مثل الاتحاد السوفييتى بالأمس والولايات المتحدة اليوم - سوف تجد نفسها مضطرة للالتزام بالدفاع عن نفسها ضد كل القوى غير الديمقراطية.. داخليًا.. وخارجيًا! هذا هو السبب الذى جعل مصلحتنا القومية فى الدفاع عن بريطانيا

وفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية.. وهذا السبب هو الذى يجعلنا نشعر بضرورة الدفاع عن إسرائيل اليوم.. عندما تتعرض للتهديد.. ولا ضرورة عندئذ للدخول فى الحسابات المعقدة للمصالح القومية الأمريكية! وخلف هذا كله هناك حقيقة أخرى مؤكدة.. ألا وهى التفوق العسكرى الهائل للولايات المتحدة فى مواجهة العالم بأسره.. فى أية صورة كانت! هذا التفوق العسكرى لم يخطط له فرد واحد.. وحتى اليوم.. هناك أمريكيون كثيرون لا يتحدثون عن إنجازاتهم وإسهاماتهم فى هذا المجال. بمعنى آخر لقد كان هذا التفوق بسبب حظنا السيئ!! فعلى مدى نصف قرن بعد الحرب العالمية الثانية - وبينما كانت أوروبا تنعم بالسلام ويعتمد الاتحاد السوفيتى إلى حد كبير على الكتلة التابعة له فى خوض معاركه - (تورطت) الولايات المتحدة فى سلسلة من الحروب: الحرب الكورية.. حرب فيتنام.. حرب الخليج.. نزاع كوسوفو.. حرب أفغانستان.. وأخيرًا حرب العراق!!

ونتيجة لذلك.. كما يرى الأب الروحى للمحافظين الجدد.. «زاد إنفاقنا العسكرى بما يتناسب مع نمونا الاقتصادى. وفى ذات الوقت قلصت الدول الأوروبية إنفاقها العسكرى لصالح برامج الرفاهية الاجتماعية. كما أنفق الاتحاد السوفيتى أمواله فى

اتجاه خاطئ، لذا انهارت قوته العسكرية والاقتصادية (مع الاعتراف بأن هناك أسبابا أخرى للانهيار).

وفجأة.. وبعد عقدين من التراجع الإمبراطورى.. برزت الولايات المتحدة كقوة عالمية فريدة.. وترك سحر هذا المركب من المصالح على مدى نصف قرن أثره على ميزانيتنا العسكرية.. وكذلك فعلت البحوث العلمية والتكنولوجية لقواتنا المسلحة».

ويقول كريستول: «ومع السلطة تأتى المسئوليات.. سواء فكرت أم لم تفكر فيها.. رحبت أم لم ترحب بها. وهناك حقيقة تقول: إذا كانت لديك السلطة والقوة التى لدينا (الولايات المتحدة الآن).. فإما أن تجد فرصا لاستخدامها.. وإما أن يبحث لك العالم عن تلك الفرص!! ولعلها صدفة تاريخية أن يعيش رئيسنا وإدارته فى تلك البيئة داخل الولايات المتحدة.. على رغم أنهم لم يتوقعوا هذا الدور(؟!) ونتيجة لذلك بدأت حركة المحافظين الجدد تستمتع بحياة جديدة.. فى وقت كان العزاء لها ينشر فى الصحف ووسائل الإعلام»!!

تناقضات حادة

ومن الواضح أن كريستول يحاول صياغة عقيدة المحافظين الجدد فى إطار فلسفى متماسك.. ويحاول أن يقدم المبررات

والأسباب التى جعلتها تهيمن على أمريكا والعالم. ولكن التناقض الأهم الذى وقعت فيه تلك الحركة هو مطالبتها بنشر الديمقراطية والحريات فى الدول الأخرى.. بينما تسير إدارة بوش - إدارة المحافظين الجدد - فى اتجاه معاكس! وإذا كانوا يطالبون بالحقوق والحريات الإنسانية للآخرين، فإن المحكمة الأمريكية العليا قد تجاوزت تلك المبادئ فى الولايات المتحدة.. وخارجها أيضًا. والفلوجة ومناطق عديدة فى العراق وأفغانستان وفلسطين شاهدة على قمة التناقض الأمريكى. الفلوجة - وقبلها جنين ودير ياسين وبعدها الشيخ أحمد ياسين والدكتور الرنتيسى - كلها شواهد على النموذج الديمقراطى الحر الذى يقدمونه للعراق؟!.

أما التشكيك فى الحكومة العالمية والمنظمات الدولية فهو مبرر لتأكيد السيطرة الأمريكية على العالم وإبعاد كافة المؤسسات التى تحاول الشعوب الأخرى التعبير - مجرد التعبير - عن آرائها من خلالها. وعلى رغم استخدام واشنطن للأمم المتحدة كغطاء لتبرير وتمرير الكثير من سياساتها واستراتيجياتها.. إلا أنها تسعى للانفراد التام.. والاستعانة بالمنظمات الدولية عند الحاجة فقط!

وقد ذكر (هوارد دين) المرشح الديمقراطى السابق لمنصب الرئاسة: «أعتقد أن الآخرين يستخدمون الرئيس بوش لتحقيق

مصالحهم.. كما أنه أسير مجموعة المحافظين الجدد التى تحيط به. ويبدو أن حركة المحافظين الجدد قد وجدت نفسها فى مأزق بعد انهيار منافسها الأيديولوجى التقليدى.. الاتحاد السوفيتى.. وفقدت مبررًا رئيسيًا لشن حملاتها وحروبها العالمية. كما جاءت هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتدفع أمريكا للقيام بدور توسعى أنشط على الساحة الدولية. وهجمات سبتمبر تلبى أعمق طموحاتهم ومخططاتهم.. خاصة السيطرة على السلطة».

وإجمالا فقد فقد المحافظون الجدد أهم دعامتين للولايات المتحدة، الأولى: تعطيل النصوص القانونية والدستورية بدعوى مكافحة الإرهاب.. والثانية: بداية التركيز العنصرى على الأيديولوجية المسيحية- الصهيونية.. والتخلى عن تنوع الثقافات والحضارات والأديان.. فى إطار البوتقة التى كانت تصهر المجتمع الأمريكى بأسره.. وهاتان الدعاماتان هما سر تفوق أمريكا.. وليست القوة العسكرية.. التى هى نتاج هذا التفوق.. وليست سببه.

□□□

بقى أن نعرف أن إيرفينج كريستول.. الأب الروحى للأشرار.. حاز على الميدالية الرئاسية للحرية من الرئيس بوش عام ٢٠٠٢.. وهو عضو بمعهد أمريكان إنتربرايز (أحد المعاقل

الرئيسية لليمين المتطرف) وهو مؤسس ورئيس تحرير العديد من الدوريات والمجلات، وشارك ضمن سلاح المدفعية الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية. ولعلنا استطعنا سبر غور أفكاره ونظرياته وتاريخه.. حتى الآن!